

الانبعاث الإنساني في مواجهة الآثار التفتيتية للعولمة

■ أحمد زايد

مقدمة:

كيف يمكن أن نواجه تحديات العولمة وآثارها السلبية؟ هل يمكن البحث عن أُطرٍ مشتركة بين ثقافات العالم تساعد على تكوين «مؤتلف إنساني» قادر على أن يعبر بالعالم نحو مرحلة جديدة من حياته؟ وإلى أيِّ مدى يمكن أن يعمل هذا المؤلف على تشكيل انبعاث إنساني، يُعيد للحدثة رُوحها المفقودة، ويعمل على تقريب الشعوب وتجبير ما انكسر في علاقاتها السياسية؟ وهل يمكن أن يؤدي إلى تقليل أشكال التفتيت والصراع بين الثقافات المختلفة عبر العالم، والتي ازدادت بشكلٍ واضح في الحقبّة المعاصرة من العولمة؟ وهل يمكن أن يبعث نمطاً مختلفاً من العولمة، يمكن أن يكون أكثر إنسانيةً وأقلّ توحّشاً ومادية؟ وإلى أي مدى يمكن أن نستعيد الأحلام القديمة للحدثة والتي رفعت شعارات التنوير والحرية والمساواة والتعايش السلمي بين الشعوب؟ كل هذه الأسئلة تتحول إلى أسئلة مُلحّة ونحن نفكر في أحوال عالمنا المعاصر الذي حولته قوى العولمة والرأسمالية إلى

■ أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة.



عالم تشوّبه كل أشكال الصراع والانقسام. وعلى خلفية هذه الأسئلة نسوق الحديث في هذا المقال، فنطرح سؤالاً رئيساً يستغرق كل الأسئلة السابقة: هل يمكن للبحث عن المشترك بين الثقافات أن يدفع نحو نموذج عالمي جديد للعولمة، يقلل من أشكال التفتت والتفكيك التي صاحبت الصورة المعاصرة منها؟ نحتاج للإجابة على هذا السؤال أن نتعرف على طبيعة القوى المعاصرة للعولمة، وأن نكشف عن إرهاصات ما نُطلق عليه الانبعث الإنساني، وأن نكشف عن الدور الذي يمكن أن يلعبه في تقليل الآثار السلبية للعولمة وقواها التفتتية.

أولاً: العولمة: السيولة والمخاطر وعدم اليقين:

لقد مرّ العالمُ بفتراتٍ مختلفة من تاريخه، وانتهى إلى العصر الذي نعيش فيه والذي يطلق عليه عصر العولمة. ولقد تشكّل هذا العصر عبر فترات من التحول بدأت بالكشوف الجغرافية، ومرت بأشكالٍ مختلفة من الاستعمار ونشر قيم الرأسمالية ونُظُمها الاقتصادية، حتى وصل إلى الحقبة المعاصرة، التي أدت إلى انضغاط العالم عبر تفكيك علاقات الزمان والمكان، وسيطرة نُظُم الاتصال الحديث بما شهدته من تطوُّر هائل، أدى إلى تحويل المجتمعات المعاصرة إلى مجتمعات شبكية، لا مكان فيها منعزل أو بعيد؛ وتطوُّر شبكات الإنتاج والاستثمار والاستهلاك، واتساع نطاق عملها على المستوى العالمي، وسهولة تدفقات رؤوس الأموال والسلع والخدمات والأفكار والإيديولوجيات والتكنولوجيا وأساليب الاتصال. لقد تطورت العولمة نحو صياغة قوى عاتية لضمّ العالم وضغطه، من أجل أن يسود فيه نظامٌ اقتصادي واحد، وتتعدد فيه الثقافات. ولذلك فمن الخطأ أن نفهم العولمة على أنها تحوُّل العالم إلى قرية صغيرة فقط؛ إنها تفعل ذلك حقاً؛ ولكنها تحوِّله في الوقت ذاته إلى قرية تشهد أشكالاً مختلفة من الصراع والعراك الدائم حول الهوية والثقافة والدين؛ وهو عراك تنتجه الثقافات المحلية التي تحاول العولمة أن تضغطها أو تمحوها أو تغيّرها في وجهات معينة. ولذلك يمكن القول بأن العولمة توحد العالم من

أعلى، من أبنيتها الاقتصادية الإنتاجية والاستهلاكية؛ ولكنها تفكّكه من أسفل. إنها تعتمد آليتين: آلية التكامل التي تعمل على توحيد القوانين الاقتصادية، وتخليق تشريعات إقليمية وكونية تؤطر للاندماج، وآلية التفكيك التي تعمل بقوة في أطراف العالم حيث تخفُّ رقابة الدولة، وحيث تُسهّم بعضُ النظم السياسية في عدم الالتزام بالقواعد¹. تعمل العولمة إذن على أن ينضغط العالم ويتقارب في صيغته المادية والشكلية، وعلى أن يتفكك وينقسم في صيغته المعنوية والثقافية. إنها توحد العالم باليد اليمنى وتفكّكه باليد اليسرى.

تعمل العولمة إذن على أن ينضغط العالم ويتقارب في صيغته المادية والشكلية، وعلى أن يتفكك وينقسم في صيغته المعنوية والثقافية. إنها توحد العالم باليد اليمنى وتفكّكه باليد اليسرى.

ولقد أدى هذا الظرف إلى النظر إلى مشروع العولمة المعاصرة لا على أنه خيرٌ كامل، بل على أنه مشروعٌ يحمل في طياته بذوراً لنمو الفردية والانقسام والبحث عن الحدود الثقافية الضيقة، ولنمو النزاعات المتطرفة التي تدافع عن الثقافات المحلية، التي تندثر تحت سيطرة الذراع المعولمة للرأسمالية، ونمو الصراعات السياسية التي تأخذ في كثير من الأحيان طابعاً مسلّحاً، وهي صراعات تنتشر الآن في أماكن مختلفة من العالم، وتكاد تدفع العالم إلى شفا

حربٍ عالمية ثالثة. ليس غريباً إذن أن توصف الحقبة المعاصرة من العولمة بأوصاف لا تشي بأي نوعٍ من الإيجابية، قدّر تعبيريها عن القلق من مدى التطور في هذا الاتجاه وعمق هذا التطور.

يكشف عن ذلك التراثُ النظري والبحثي حول العولمة، وحول ظروف العالم المعاصر، والذي يحمل عدداً من المفاهيم التي تبث القلق وتنبئ عن التحديات التي تفرضها العولمة على العالم المعاصر؛ فالحقبة المعاصرة

1 - أحمد زايد، عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية، مجلة عالم الفكر، المجلد (32)،

العدد (1)، 2003، ص 13.



هي حقبةٌ لعالمٍ منفلتٍ يسرع بالتغيّر غير المنظم وغير المنضبط²؛ وهي حقبة عدم اليقين التي تنتشر فيها صور من القلق ناتجة عن انتشار الأسلحة النووية، وازدياد الصراعات العرقية، والحركات السياسية ذات الطابع الكوني وإعادة تعريف الفرد من منظورات جندرية وإثنية ودينية³؛ وهي إمبراطورية للفوضى يسيطر فيها عدم النظام والأشكال المختلفة من الاحتكار⁴ أو أشكال من الهيمنة الأمريكية، التي توجّج الصراعات في أماكن مختلفة من العالم⁵، وهي عولمة تُخلق حدثاً سائلة لا تعرف السكون، ويفقد الإنسان فيها سيطرته على العالم⁶، وهي عولمة تخلق استقطاباً بين عالمٍ يقوم على المحاسبية واللاشخصية والسرعة (عالم ماك)، وبين عالم التطرف والغلو (عالم الجهاد)⁷، وأخيراً وليس آخراً فإنه عالمٌ مخاطر، تزداد فيه حِدّة الخطر الذي يطارد الناس في كل جوانب حياتهم، ويحيل الحياة إلى أطر مفككة لا مكان فيها لروابط اجتماعية قوية⁸.

وتدلّنا هذه الأوصاف على أن العالم المعاصر يسير في طريق معاكس للوعي الكبير الذي انطلق منه مشروع الحداثة المعاصر، والذي تمثل في مبادئ التنوير، وطموحه إلى «العقد الاجتماعي» القائم على إرادة المجموع، و«الحكومة المدنية» التي تؤسس على سيادة القانون والتسامح والمساواة في

- 2 - أنطوني جيدنز، عالم منفلت: كيف تشكل العولمة حياتنا، ترجمة محمد محيي الدين الطبعة الأولى، القاهرة، ميريت للنشر والمعلومات، 2005.
- 3 - روبرتسون، العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافية الكونية، ترجمة أحمد محمود ونورا أمين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998.
- 4 - سمير أمين، إمبراطورية الفوضى، ترجمة وتحقيق سناء أبو شقرا، دار الفارابي، بيروت، 1991.
- 5 - آلان جوكس، إمبراطورية الفوضى، الجمهوريات في مواجهة الهيمنة الأمريكية ما بعد الحرب الباردة، بيروت، دار الفارابي، 2005.
- 6 - زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2015.
- 7 - بنجامين باربر، الجهاد في مواجهة عالم ماك: عالم ماك المواجهة بين التأقلم والعولمة، ترجمة أحمد محمود، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، 1998.
- 8 - أولريش بيك، مجتمع المخاطر العالمي - بحثاً عن الأمن المفقود، ترجمة علا عادل وهند إبراهيم وبسنت حسن، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2006.

الحقوق والواجبات؛ بل إنه يسير في طريق معاكس للنصوص التي يقطعها العالم على نفسه لتحقيق الأمن والسلام والطمأنينة لكل الشعوب، وعلى رأسها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وميثاق الأمم المتحدة، والإعلانات والاتفاقيات المتتالية التي لم تترك شيئاً إلا أخصتته. ولعل هذا الظرف هو ما فتح الطريق أمام ظهور نزعات إنسانية مضادة للعولمة وتطلعاتها، وهي نزعات تأخذ صوراً عديدة على المستوى العالمي والمستويات المحلية، وتبدو هذه النزاعات الإنسانية وكأنها تبحث عن طريق مختلف للعالم، عن نموذج جديد أكثر إنسانية وعدالة، وأقل ميلاً نحو التفتيت والانقسام. ويمكن النظر إليها على أنها انبعاث إنساني جديد، نقف عليه فيما يلي.

إن قوى العولمة التفتيكية وآلياتها الاحتكارية قد طورت من داخلها أساليب للمقاومة والرفض، والإصلاح والتطوير، لقد أدخلت العولمة المعاصرة العالم في أزمة كبيرة، كان عليه أن يعمل على تخطيها أو على الأقل التغلب على أثارها السلبية.

ثانياً: الانبعاث الإنساني: البحث عن وجه جديد للعالم:

إن قوى العولمة التفتيكية وآلياتها الاحتكارية قد طورت من داخلها أساليب للمقاومة والرفض، والإصلاح والتطوير، لقد أدخلت العولمة المعاصرة العالم في أزمة كبيرة، كان عليه أن يعمل على تخطيها أو على الأقل التغلب على أثارها السلبية. لقد طرحت

هذه الأزمة أسئلة كبرى كان يجب التصدي لها: فإلى أي مدى يمكن أن ينفُض العالم عن نفسه مظاهر الفرقة والانقسام؟ وهل ثمة امكانية لمشروع بديل للعالم يكون أكثر عدلاً وأقل إنتاجاً للفوضى والدمار، عالم يقل فيه الاحتكار، ويتخلق في جوانبه تآلف وتوازن بين الحقول الاقتصادية والسياسية والثقافية؟ وهل ثمة مسارات أخرى للنظام الرأسمالي تجعله أكثر عدلاً، وأقل احتكاراً واستدامة؟ ولقد استجاب العالم لهذه الأسئلة بطرق عديدة بعضها نابع من آليات العولمة نفسها، وبعضها الآخر نابع من قوى رافضة للعولمة، والكل يدور في فلكها.



1 - المنتديات العالمية التي تقرب بين الآراء، وتطرح تفاعلاً حول قضايا اقتصادية واجتماعية مهمة. ومن أهم هذه المنتديات منتدى دافوس الاقتصادي الذي بدأ حواراته منذ عام 1971، والذي أسهم في خلق نمط ثقافي جديد، يطلق عليه الباحثون «ثقافة دافوس Davos culture»، وهي ثقافة معولمة تؤسس لنخب جديدة (النخب المعولمة)، تتميز بأساليبها الحوارية، وقدراتها التفاعلية، وأساليب حياتها المعولمة، التي ينقض جانب كبير منها بين كبائن الطائرات وحجرات الفنادق وردهااتها. حقيقة إن هذه المنتديات هي جزء من الخطاب العالمي للعولمة؛ ولكنها من الناحية الأخرى تشكل طوقاً لترشيد العولمة وإضفاء الطابع العقلاني عليها.

2 - وإذ كانت ثقافة دافوس تؤطر لحوار معولم، فإن الحركات المضادة للعولمة تؤطر لمقاومة العولمة وتدعو إلى عولمة جديدة. ولقد بدأت هذه الحركات كامتداد للحركات التي تقاوم سباق التسليح، والتي وضعت على أجندتها محاربة انتشار الأسلحة النووية. واتخذت هذه الحركات طابعاً منظماً منذ الاحتجاجات التي شهدتها مدينة سياتل الأمريكية في نهاية عام 1999 ضد منظمة التجارة العالمية. لقد توسعت هذه الاحتجاجات وأسست تشبيكات دولية، وأصبح لها هوية سياسية تحت مسمى «الحركات المضادة للعولمة»، وامتدت احتجاجاتها لتشمل كل رموز العولمة؛ كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والمنتدى الاقتصادي العالمي، قمة الثمانية الكبار. وغالباً ما يشارك في هذه الحركات كل الجماعات التي يفترض أن تضار من العولمة مثل نقابات العمال، ونشطاء حقوق الإنسان، وأنصار المحافظة على البيئة. وتتألف هذه الحركات على إيديولوجية مناوئة لليبرالية الجديدة، وداعية إلى مزيد من الديمقراطية التشاركية⁹.

3 - ولقد ولدت هذه الحركات الجديدة أشكالاً من التشبيك المعولم، الذي تجسّد في ظهور شكل جديد من أشكال المجتمع المدني، هو المجتمع

9 - انظر: Mark Engler, Defining the Anti- Globalization Movement، متاح على الموقع التالي:

<https://democracyuprising.com/2007>

المدني المعولم. وهو يتكون من جمعيات طوعية عابرة للقارات، تعمل - من ناحية - على معاضدة الحركات التي تناوئ الصور الاحتكارية المهيمنة للعولمة، وتعمل - من ناحية أخرى - على بناء ثقافةٍ كونيّةٍ جديدةٍ تدافع عن حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وتدعو إلى المحافظة على البيئة وحماية المجتمعات من مخاطر التلوث والاحتباس الحراري. وبالرغم من أن البعض قد ينظر إلى التشبيكات المدنية العالمية على أنها جزءٌ من آليات العولمة نفسها؛ فإنها تشكّل بناءً متوازياً يفرز أحياناً صوراً من مقاومة العولمة، على أساس أنها تشارك في نضالات من أجل التخفيف من معاناة الإنسان وتحقيق

يتكون المجتمع المدني العالمي من شبكات وأطر عابرة للقارات تعمل في جميع مجالات الحياة بدءاً من تقديم العون للاجئين، وحتى الدفاع عن الحقوق المدنية، ومروراً بتقديم الرعاية الصحية لمنكوبي الحرب.

العدالة والمساواة، مع تقديم بدائل جديدة للتغيير. ويتكون المجتمع المدني العالمي من شبكات وأطر عابرة للقارات تعمل في جميع مجالات الحياة بدءاً من تقديم العون للاجئين، وحتى الدفاع عن الحقوق المدنية، ومروراً بتقديم الرعاية الصحية لمنكوبي الحرب. ولقد تعاضم دور المنظمات المدنية العابرة للقارات مع تطوّر أدوات التواصل الاجتماعي، حيث يمكن لهذه المنظمات أن تكثف اتصالاتها، وتبني أساليب متطورةً للتشبيك والاتصال، فضلاً عن التعاون

البنّاء مع المنظمات الحكومية الدولية، لقد أصبح لهذه المنظمات قدراتٌ تحريرية، أو إمكانات تحريرية، نابعة من استقلالها ومنطلقاتها التطوعية¹⁰.

4 - ولقد تشكّلت هذه القوى على أصداء خطاب ثقافي وأكاديمي، يدعو إلى التآلف بين الشعوب والحوار بين الثقافات، وقد تخلّق هذا الخطاب عبر قنوات رسمية وأخرى أكاديمية ثقافية، ويمكن التمييز داخله بين

10 - انظر حول الإمكانيات التحريرية للمجتمع المدني العالمي:

Celina Del Felice, Transnational Activism and Free Trade. Exploring the Emancipator Potentials of Global Civil Society, International Journal of Voluntary and Nonprofit Organizations, Volume 23, Issue 2, 2012, pp. 302-327.



مسارات: تَمَثَّلُ الأول في مساعي منظمة اليونسكو نحو تأكيد الجوانب التعددية في الثقافة، والدعوة إلى تكامل الثقافات بشكلٍ فعَّالٍ وخلاق، والذي انعكس بجلالٍ في وثيقة اليونسكو عن التنوع الثقافي الخلاق التي صدرت عام 2001¹¹، وما تلاها من مؤتمرات وتقارير حول الثقافة، فضلاً عن الاهتمام الذي أولته اليونسكو للتراث الثقافي غير المادي. وتَمَثَّلُ المسار الثاني في حوارات الأديان التي تبنته مؤسساتٌ مدنية ودينية، وشاركت فيه مؤسسات دينية عربية. وقد جاء هذا المسار كردِّ فعلٍ لتنامي أشكال التطرف الديني. أما المسار الثالث فقد تجسد في صورة خطابٍ ثقافي يدعو إلى البحث عن المشترك في الثقافات. ولقد ظهر هذا الخطاب على أثر نشر كتاب صموئيل هنتنغتون حول صدام الحضارات عام 1996 وقد أسهم في هذا الخطاب هنتنغتون بوضع عبارة «إعادة تشكيل النظام العالمي» في عنوان كتابه، الذي أكدَّ فيه على ضرورة البحث عن المظاهر المشتركة commonalities بين الثقافات¹². وتشكَّلُ المسار الرابع في محاولة تطوير أفكارٍ جديدة حول نظام عالمي جديد، وقد بزغ هذا المسار بعد أن اجتاحت العالمَ موجةٌ من الحراك الاجتماعي والثقافي، بدءاً من نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، وقد بزغ هذا النوع من الفكر على المستوى العالمي، وانعكس في الفكر العربي في الحوارات التي تجرى في كثيرٍ من المراكز البحثية¹³.

وتصبُّ كل هذه الأفكار في طريقٍ واحد عبَّرَ أساليب مختلفة، أو قُلُّ: البحث عن طريق إنساني للعولمة، والحقيقة أن إضافة كلمة «إنساني» هنا يجب أن تؤخذ بكل اهتمام؛ فهذه إضافة مهمة تحيل عملية البحث عن

11 - ترجمت هذه الوثيقة إلى اللغة العربية، انظر: جابر عصفور، التنوع البشري الخلاق، المركز القومي للترجمة.

12 - انظر صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، مكتبة نور، 1996.

13 - ننوه هنا إلى الإصدار الذي خرج عن مؤسسة الفكر العربي في سلسلة أفق عام 2019؛ وأسهم فيه عدد من الكتاب العرب.

المشترك الثقافي بين الشعوب إلى عملية ذات طابع إنساني، ليس لها أهداف سياسية أو اقتصادية؛ فالهدف الرئيس هو البحث عمّا هو إنساني في الثقافات، والعمل على تخليص الثقافات المختلفة من مشاعر الغلو والتطرف، ومن القيم الدافعة للعنف والإرهاب وتخويف الآخرين أو نبذهم أو تهميشهم، ويمكن أن ننظر إلى هذه العملية على أنها نوعٌ من «الانبعاث الإنساني»، الذي يأمل في أن تشحذ الحداثة المعاصرة بروحٍ جديدةٍ مختلفة، تعمل على حقن الإنسانية في جسد العولمة.

ثالثاً: الحداثة المصقولة: أهداف جديدة لعولمة جديدة:

يجب أن يتجه الانبعاث الإنساني نحو «غسل» وجه الحداثة مما شابهه من صورٍ من الهيمنة والاحتكار الاقتصادي، وما دخل إليها من عنفٍ وتطرفٍ، وما جعلها تصل إلى حافة الخطر. ويكون الأمل هنا معقوداً على الولوج إلى مرحلة جديدة من الحداثة، أُطلق عليها «الحداثة المصقولة»، حادثة إنسانية تعيد للفرد الحرّ

مكانته في الحياة، وتؤسس لوجود إنساني جديد يستعيد روح التنوير التي فُقدت، ويستنهض الشعوب جميعها نحو تحقيق مجتمع إنساني جديد، قوامه العدل والمساواة والنزاهة والإنجاز الذي يصب في سعادة الإنسان¹⁴.

لسنا بحاجة إلى أن نقدر التنوير كما فعلت مدرسة فرانكفورت، أو أن نماهي بينه وبين الرأسمالية؛ فقد كانت الرأسمالية - بنزعتها اللاإنسانية - هي التي قوّضت الأسس التي قام عليها الفكر التنويري، إننا بحاجة إلى أن نفصل آليات السوق وآليات السياسة عن آليات الفكر التنويري، وأن ينصبّ

14 - طرح فكرة الحداثة المصقولة في إسهامي في كتاب «أفق»، المشار إليه في هامش 13، وأحاول هنا تطويرها بشكلٍ أعمق.

نقُذنا على آليات السوق التي أدت إلى هذا الوجود الأسير الذي يعيش فيه العالم، وكذلك آليات السياسة التي تُوَطر لهذه الرأسمالية، وتخلق لها شرعية قانونية وتؤكد سطوتها. إن الذي أَفَقَدَ التنويرَ معناه هو مسارات الاقتصاد والسياسة. ومن ثمَّ فإن الدعوة إلى الحداثة المصقولة هي دعوة أصيلة لنقْد الحداثة، وهي في الوقت نفسه دعوة لاستعادة روح التنوير، بدءاً من إرهاباته المبكرة في الحركة الفنية في عصر النهضة التي جسدها صور الموناليزا للفنان الكبير ليوناردو دافنشي (1452 - 1519)، ومروراً بعقلانية الفكر الخاص والعملي وذائقة الحكم الجمالي، التي جسدها أعمال كانط (1724 - 1804) ورسائل فولتير (1694 - 1778) ولوك (1632 - 1704) عن «التسامح»، وحتى نظرية الحكومة المدنية لجون لوك، ونظرية الإرادة العامة ودين الفطرة لجان جاك روسو (1712 - 1778). ولا بأس من أن تتألف هذه الأفكار جميعها مع أفكارٍ مأخوذة من تراثات أخرى في الفلسفات الشرقية (الإسلامية والكنفوشيوسية والبوذية والهندوسية والزرادشتية).

ومن شأن هذا الانبعاث الإنساني الجديد أن يؤسس لعقلٍ حدائثي جديد، وروح حدائثية جديدة يتألف فيها العقلُ مع الروح، والقديم مع الجديد، والمحلي مع المعولم، في تعايشٍ سلْمِي لا يعرف الإقصاء أو التهميش. ويفترض أن يعمل هذا الانبعاث الإنساني الجديد على مقاومة كلِّ الأطر التي عكَّرت صَفْوَ الوجود الإنساني، بما فيها الآثار التفتيتية والانقسامية للعولمة. وعلى هذه الخلفية يفترض أن يتجه هذا الانبعاث الإنساني نحو تحقيق أهدافٍ محددة تشكّل الأساس لبناء عالمٍ جديدٍ مختلفٍ، يواجه عالمَ العولمة المعاصر، ويفتح الباب نحو عولمة جديدة وحداثة جديدة. ومن أهم هذه الأهداف:

1 - مقاومة آليات السوق وطغيانه:

يتأسس العالم المعاصر على قوة السوق وطغيان رأس المال، وإزاء هذا الظرف تجُفُّ الجوانب الإنسانية، وتتوارى أخلاقياتُ الجمال، ويتحول الوجود الإنساني في كثير من المجتمعات (خاصة المجتمعات التي تقف

على أطراف العالم الرأسمالي) إلى وجود مهدّد، يلهث خلف الحفاظ على الحدّ الأدنى من العيش. فيبدو المشروع الرأسمالي وكأنه بحاجة إلى أن يعاود النظر في أساليبه للحدّ من سيطرة السوق وطغيان رأس المال، لا بالسعي نحو توزيع أكثر عدالة للدخل فقط؛ وإنما بالتأكيد على جوانب الارتقاء العقلي والثقافي والجمالي والروحي للإنسان. إننا بحاجة إلى الاهتمام بالتعليم والإبداع الثقافي والفكري والأدبي، وإعادة القيمة والاهتمام إلى الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وإعادة تعمير البناء الأخلاقي لرأس المال، وحماية المستهلكين من الاحتكار وغلاء الأسعار وفساد

إنّ الاقتصاد في رؤية علماء الاجتماع هو نسق التكيف، القادر على أن يمنح الإنسان سُبلاً للعيش الكريم الذي يحافظ على تكيفه وقدرته المستمرة على العمل والإنتاج، وهو نسقٌ يحافظ دائماً على استقلاله وعلى علاقته المتوازنة مع الأنساق الأخرى.

الطعام ومضاره الصحية. إن الاقتصاد يجب ألاّ تحكّمه ظروف العرض والطلب، والمكسب والخسارة؛ بل يجب أن يسكن بالإنسانية، وأن تكون سعادة الإنسان هي هدفه الرئيس. إن الاقتصاد في رؤية علماء الاجتماع هو نسق التكيف، القادر على أن يمنح الإنسان سُبلاً للعيش الكريم الذي يحافظ على تكيفه وقدرته المستمرة على العمل والإنتاج، وهو نسقٌ يحافظ دائماً على استقلاله وعلى علاقته المتوازنة مع الأنساق الأخرى، لا يطغى عليها ولا يخضعها لسيطرته، حيث تطلُّ العلاقات بين الأنساق متوازنة دوماً ولا سبيل إلى ذلك إلا بقوة ينتجها

النسق السياسي ليؤسس لتنظيم عادل لتوزيع الثروة، واستخدام رشيد للموارد، ودعم اجتماعي تولّده الروابط المجتمعية، وأسسٍ للتعليم والتنشئة لتكوين المواطن الصالح¹⁵. ورغم أن هذه الصياغة قد تكون مثالية يصعب تحقيقها على أرض الواقع، فإنها تبقى نموذجاً يجب أن تسعى المجتمعات إلى الاقتراب منه في سعيها نحو تحقيق النموذج الإنساني للحياة.

15 - هكذا ذهب تالكوت بارسونز عالم الاجتماع الأمريكي الأشهر، في تحليلاته النسقية. انظر على وجه الخصوص كتابه بعنوان النسق الاجتماعي Social System المنشور عام 1951.



2 - إعادة الاعتبار إلى الفرد:

ومن شأن الانبعاث الإنساني أن يعيد الاعتبار إلى الفرد. لقد تأسس التنوير على تحرير الفرد من قيود وأصنام كثيرة، فهو فرد حُرٌّ لا يستمد إرادته من قوى خارجية أو من سيطرة سياسية أو خضوع إمبراطوري أو ديني؛ ولكنه يستمدها من ذاته، من تكوينه العقلي والوجداني المستقل، أو من إرادته المستقلة. ولم تكن الإرادة العامة عند روسو إلا مجموع الإرادات الفردية التي تكوّن إرادة المجتمع، وهي إرادة لا تلغي إرادة الفرد؛ فالتعاقد يعمل على أن يقف «كل واحدٍ إزاء الجميع، والجميع إزاء كل واحد»¹⁶. وإذ يتنازل الفرد - في صيغة العقد الاجتماعي - عن حريته الفردية؛ فإنه يكسب حريةً أخرى هي الحرية المدنية أو الأخلاقية التي تقوم على طاعة القانون، وكما يقول روسو نفسه فإن «طاعة القانون الذي نسّنه لأنفسنا: حرية»¹⁷. ولا نظنُّ أن التطورات التي طرأت على المجتمعات الحديثة قد اقتربت من هذه الصورة المثالية للإنسان الحر، صانع إرادته الخاصة، وإرادته الجمعية عبّر القوانين المدنية. ربما يكون هذا قد تحقق على المستوى الشكلي، ولكن يبقى الإنسان المعاصر أسيراً للعقلانية المفرطة من ناحية، ولتكنولوجيا من ناحية ثانية، ولعلاقات السوق من ناحية ثالثة، وأخيراً لتكنولوجيا الاتصال ووسائط التواصل الاجتماعي. لم يُعدّ القفص الحديدي الذي تحدّث عنه ماكس فيبر إثر حديثه عن تصفيد العالم Disenchantment of the World¹⁸ أو نزع روحه وسحره، لم يُعدّ هذا القفص الحديدي قفصاً واحداً؛ بل أصبح أقفاصاً عديدة، وهي أقفاصٌ تزداد في العدد وتَقوى في النوع كلما تحركنا إلى أطراف العالم حيث الدول الفقيرة، وكلما تحركنا إلى أسفل عبر طبقات المجتمع المختلفة. ولعل إدراكنا لهذه القيود على حرية الإنسان تكون بدايةً

16 - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي، ترجمة عمار الجلاصي، وعلي الأجنف، تونس: دار المعرفة للنشر، ص 41.

17 - المرجع السابق، ص 28.

18 - انظر حول مفهوم تصفيد العالم: Steven Grosby, Max Weber, Religion, and the Disenchantment of the World, Society, volume 50, issue 3, June 2013, pp. 301-310.

لإعادة تحريره، عبر إعادة القيمة والاهتمام للفرد الحر، الذي يمتلك إرادة حرة مستقلة، ووجوداً حرّاً متعدد الأوجه.

3 - الآخريّة الحاضنة لا النافية:

إن وجود الذات أو الأنا لا يتحقق بشكلٍ كاملٍ دون وجود الآخر، وهذا هو المعتقد الرئيس في تأسيس الاجتماع الإنساني؛ فالقول بأن الإنسان مدنيٌّ بطبعه أو أنه حيوان مدني، يتضمن استحالة العيش دون الآخرين، وأن التعاون والاتفاق يشكّلان دعامتين أساسيتين في بناء الاجتماع الإنساني. ولقد أدت

من شأن الانبعاث الإنساني أن يعيد الاعتبار إلى الفرد. لقد تأسس التنوير على تحرير الفرد من قيود وأصنام كثيرة، فهو فرد حرٌّ لا يستمد إرادته من قوى خارجية أو من سيطرة سياسية أو خضوع إمبراطوري أو ديني.

الظروف الملاحقة لنظام العولمة المعاصر إلى تهديد مفهوم الآخريّة، لقد شهد العالم نمواً كثيفاً للنزعات الشعبوية، التي تأسس الكثير منها على عقائد معاكسة لفكر التنوير والحداثة، عقائد تعود بالمجتمعات إلى تصوراتٍ قديمة حول العرق والسلالة والدين والإقليم. ولقد انتهت هذه النزعات إلى حرب عالمية راح ضحيتها الملايين من البشر¹⁹. كما يشهد عالمنا المعاصرُ انبثاقاً لصورٍ عديدة من التطرف تقوم على أساس ديني، وتتبنى أشكالاً مختلفة من

الإرهاب وصناعة الحروب والقتل، يصاحبها إعادة انبثاق للنزعات الشعبوية الجديدة والتي تستعيد مفاهيمها القديمة حول العرق والسلالة والدين. وعلى أصداء هذه التغيرات أصبح مفهوم «الآخريّة» مفهوماً نافياً ورافضاً، يؤسس للتهميش والاستبعاد، بل يؤسس - في كثيرٍ من الأحيان - للعنف والقتل. لقد أصبح «الآخر» في كثير من الثقافات عدواً، بدلاً من أن يكون سنداً في الوجود الإنساني، كما أصبحت العلاقة التي تتأسس معه علاقةً أكثر توتراً وأقلّ تسامحاً وثقة.

19 - انظر مقالنا حول النزعات الشعبوية في أوروبا، في مجلة التفاهم، العدد 65، 2019.



هنا يصبح البحث عن المشترك بين الثقافات ضرورة لاستعادة مفهوم جديد «للأخرية». مفهوم لا يقوم على نفي في الآخر؛ بل يقوم على «احتضان» الآخر، وبناء العلاقة معه على أساس من التعاطف والتعاون. إن مفهوم «الأخرية» ليس مفهوماً يقوم على الاختلاف؛ ولكنه مفهوم يتخلق عبّر التصورات والخطابات. فهو لم يُخلق إلا عبّر التصورات التي أسست لمفهوم الذات (الأنا والنحن) في مقابل مفاهيم «الهو» و«الغير»؛ وهذه التصورات هي التي تجعل البشر ينقسمون إلى جماعات، كلٌّ يحبذ جماعته، ويقلل من شأن الجماعة الأخرى²⁰. إن «الأخرية» تُبنى فينا ولا نولد بها، ولذلك فإن بالإمكان أن تتحول إلى مفهوم إيجابي، وأن تُنزع عنها كلُّ التصورات السلبية عبر آليات التعليم الحرّ، وآليات الثقافة الحرة، وعبّر تأسيس خطابٍ عالمي يركز على المشترك بين الثقافات، ويدعو إلى التعددية الإيجابية؛ هنا يمكن أن يندمج الخاص في العام، والمحلي في العالمي، والجزء في الكل، مع حفظ الاستقلالية النسبية لكل مكوّن على حدة، الأهم هو الخير العام للبشر داخل كل مجتمع على حدة، وللبشرية عبر العالم.

Jean-Francois Staszak, Other/ Otherness, International Encyclopedia of Human Geography, - 20

http://www.unige. El Servier, 2008، متاح على الموقع التالي: